التقسيم الثلاثي للتوحيد عند ابن تيمية

بين الشهرة والدقة

د/ محمود محمد حسين علي

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين بالقاهرة ـ جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد

فليس كل مشهور دقيقا ، وكذلك ليس كل دقيق مشهور ، فقد اشتهر عند كثير من الناس تقسيم الإمام ابن تيمية للتوحيد ، والذي يقسم فيه التوحيد إلى ثلاثة أقسام : (١) توحيد الألوهية. (٢)توحيد الربوبية . (٣) توحيد الأسماء والصفات .

وقد شاع استعمال هذا التقسيم في الآونة الأخيرة على قلة استعماله عند الأقدمين ، واستعماله أثار جدلا بين المعاصرين ، وأضاف مادة لأسباب الخلاف القائمة بينهم ، شأنه شأن كثير من مسائل الخلاف في تراثنا الفكري التي غزّاها التعصب والجدل الفكري ،ولم يحرر فيها محل النزاع.

فقد قال ابن تيمية : " إن الرسل لم يبعثوا إلا لتوحيد الألوهية . وهو إفراد الله بالعبادة . وأما توحيد الربوبية وهو : اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف في أمورهم ، فلم يخالف فيه أحد من المشركين والمسلمين بدليل قوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله)[1] .

وقال : "فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق، وقرره أهل الكلام فلا يكفي وحده بل هو من الحجة عليهم "[2]

و قال إن "التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الألوهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا الله: لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله، وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات"[3].

وقال في الرسالة التدمرية [4] " وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد فإن عامة المتكلمين الذين

---

[1]- سورة لقمان : الآية ٢٥ . وسورة الزمر : الآية ٣٨

[2]- الإمام ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ١ صـ ٢٣ وانظر أيضا منهاج السنة له جـ ٢ صـ ٧٣ ، والكواشف الجلية عن معاني الواسطية لعبد العزيز المحمد السلمان نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الطبعة الحادية عشرة صـ ٤٢١ ، ودعوة التوحيد للهراس الطبعة الأولى دار الكتب العلمية ـ بيروت صـ ٧٣، ٧٤ وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان للإمام ابن القيم جـ ٢ صـ ١٣٥ ، وقلما تجد كتابا في العقيدة لأتباع هذه المدرسة دون ذكر وإشادة وإطالة لهذه القضية .

[3]- الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد صـ١٢

[4]- صـ٨٣ وانظر أيضا الفتاوى الكبرى جـ ٥ صـ ٢٤٨ وما بعدها وأيضا اقتضاء الصراط المستقيم مطبعة المدني صـ ٤٥٩ـ ٤٦٤ وكتاب الإيمان صـ ٢٥٥ وما بعدها

يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع ، فيقولون هو واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له .. إلى أن يقول والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له ، والإشراك أن يجعل مع الله إله آخر ، وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار أهل الإثبات للقدر،المنتسبون للسنة إنما هو توحيد الربوبية ، وأن الله رب كل شيء ، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع أنهم مشركون ، وكذلك طوائف من أهل التصوف والمنتسبين إلى المعرفة والتحقيق والتوحيد غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد ، وأن يشهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، لا سيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده ، وبمعروفه عن معرفته ، ودخل في فناء توحيد الربوبية بحيث يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل، فهذا عندهم هو الغاية التي لا غاية ورائها، ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد ، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلما فضلا عن أن يكون وليا لله أو من سادات الأولياء ".

وقال في رسالة " أهل الصفة " : " توحيد الربوبية وحده لا ينفي الكفر ولا يكفي "[1]

وقال ابن تيمية وتابعوه من بعده _ إن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء، ويتشفعون بهم وينادونهم عند الشدائد هم عابدون لهم ، قد كفروا بما كفر به عباد الأوثان والملائكة والمسيح سواء بسواء ، فإنهم لم يكفروا باعتقادهم الربوبية في تلك الأوثان وما معها ، بل بتركهم توحيد الألوهية بعبادتها ، وهذا ينطبق على زوار القبور المتوسلين بالأولياء المنادين لهم ، المستغيثين بهم الطالبين منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

بل قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : إن كفرهم أشنع من كفر عباد الأوثان!!!!"[2]

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب[3] :"أن تعرف أن الكفار، الذين قاتلهم رسول الله يعرفون الله،

---

[1]- ص ٣٤

[2]- فضيلة الشيخ يوسف الدجوي : مقالات وفتاوى من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ١٤٠١هـ ١٩٨١م صـ ٢٤٨-٢٤٩ وانظر أيضا الأستاذ الدكتور / محمد ربيع جوهري : عقيلتنا _ الجزء الأول الطبعة العاشرة ١٤٢٦هـ _ ٢٠٠٥م صـ ١٤٦.

[3]_ الدرر السنية : جـ ٢ صـ ٢٣ وانظر أيضا له كشف الشبهات طبعة دار زمزم بالرياض الطبعة الأولى صـ ٥، ٦

ويعظمونه، ويحجون، ويعتمرون: ويزعمون: أنهم على دين إبراهيم الخليل؛ وأنهم يشهدون: أنه لا يخلق، ويرزق، ولا يدبر إلا الله، وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض)[1] .

ويقول :" لكن المشركين في زماننا، أضل من الكفار، الذين في زمن رسول الله ، من وجهين؛ أحدهما: أن الكفار، إنما يدعون الأنبياء، والملائكة، في الرخاء؛ وأما في الشدائد، فيخلصون لله الدين، كما قال تعالى: (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه)[2] .

والثاني: أن مشركي زماننا، يدعون أناساً، لا يوازنون:عيسى،والملائكة!.

إذا عرفتم هذا، فلا يخفى عليكم: ما ملأ الأرض من الشرك الأكبر، عبادة الأصنام؛ هذا يأتي إلى قبر: نبي؛ وهذا إلى قبر: صحابي، كالزبير، وطلحة؛ وهذا إلى قبر: رجل صالح؛ وهذا يدعوه، في الضراء، وفي غيبته.."

ويقول في مقام المناظرة لآخر :" أما علم: أن مسيلمة يشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمداً رسول الله ، و يصلي و يصوم ؟!"أ.هـ

وخلاصة هذه النقول وغيرها كثير : أن ابن تيمية يحكي الإجماع على أن الخلق كلهم مقرون بتوحيد الربوبية ولم يخالف في ذلك أحد .

وابن عبد الوهاب : يفرِّع على هذا القول : أن المسلمين في زمنه – الذين يتوسلون – ويسميهم المشركين أشد كفراً من مشركي الجاهلية وحاصل الجمع بين القولين أن الناس منذ خلقهم الله لم يقعوا في شرك الربوبية بل هم موحدون توحيد الربوبية إلا في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد وقعوا فيما تحاشاه فرعون والنمروذ وغيرهما!!!

ويفرع على كلامه محمد باشميل في كتابه :[كيف نفهم التوحيد][3] فيقول : "أبو جهل وأبو لهب ومن على دينهم من المشركين ، كانوا يؤمنون بالله ويوحدونه في الربوبية خالقًا ورازقًا ،محييًا ومميتًا، ضارًا ونافعا ، لا يشركون به في ذلك شيئًا!" .

وأنا لا أتخيل كيف يقال عن الكفار هم أخلص لله توحيداً من المسلمين الذين يتوسلون ..!! إن هذا لشيء عجاب !!

وماذا تفهم _ أيها القارئ الكريم من قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب قبل :" ما ملأ الأرض من الشرك الأكبر، عبادة الأصنام؛ هذا يأتي إلى قبر: نبي؛ وهذا إلى

---

[1]- سورة يونس : ٣١

[2]- سورة الإسراء : ٦٧

[3]- صـ ١١ الطبعة الأولى _ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد _ إدارة الطبع والترجمة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م

قبر: صحابي.."أ.هـ ؟! وكيف يسمي قبور الأنبياء أصناماً؟!

واستدلوا على هذا الزعم بقول الحق : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١].

وقوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

وقوله ﷻ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٣].

وقوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٤] ووجه الدلالة عندهم :أن المشركين اعترفوا واقروا بأن الله هو الخالق المدبر وهذا هو عين توحيد الربوبية؛إذ إنه: توحيد الله بأفعاله : كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ..

والإشكال هنا أن القول بالفرق في التوحيد بين توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات يؤدى إلى القول بأن جمهور الأمة الإسلامية في توسلهم وتبركهم بالأنبياء والأولياء مثل المشركين الذين وحدوا توحيد الربوبية ولكن ذلك لم ينجهم لأنهم يشركون في توحيد الألوهية .

في هذا البحث سنناقش هذا التقسيم عقلا ونقلا لنرى مدى منطقية هذا التقسيم وشرعيته ، ومن ثم ما يترتب عليه من أحكام.

ومما يجدر التنبيه إليه أن الرد على المخالف أمر مشروع ، وما أروع ما سطره ابن قتيبة _ رحمه الله _ في هذا الشأن حيث قال : " وقد يظن من لا يعلم من الناس ولا يضع الأمور مواضعها أن هذا اغتياب للعلماء ، وطعن على السلف ، وذكر للموتى ، وكان يقال " اعف عن ذي قبر " وليس ذلك كما ظنوا ؛ لأن الغيبة سب الناس بلئيم الأخلاق ، وذكرهم بالفواحش والشائنات ، وهذا من الأمر العظيم المشبه بأكل لحوم الميتة ، فأما هفوة في حرف ، أو زلة في معنى ، أو إغفال ، أو وهم ونسيان ، فمعاذ الله أن يكون هذا من ذلك الباب ، أو أن يكون له مشاكلا أو مقاربا ، أو أن يكون المنبه

١_ سورة العنكبوت : ٦١

٢_ سورة العنكبوت : ٦٣

٣_ سورة الزمر : ٣٨

٤_ سورة الزخرف :٨٧

عليه آثما ، بل يكون مأجورا عند الله ، مشكورا عند عباده الصالحين ، الذين لا يميل بهم هوى ، ولا تداخلهم عصبية ، ولا يجمعهم على الباطل تحزب ، ولا يلفتهم عن استبانة الحق حسد .

وقد كنا زمانا نعتذر من الجهل ، فقد صرنا الآن نحتاج الاعتذار من العلم ، وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة ، فصرنا نرضى بالسلامة ، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال ، ولا ينكر مع تغير الزمان ، وفي الله خلف وهو المستعان " [١]

ويقول الحافظ ابن رجب _ رحمه الله _ : " وسواء كان الذي بين الخطأ صغيرا أو كبيرا ، فله أسوة بمن رد من العلماء مقالات ابن عباس التي يشذ بها وأنكرت عليه من العلماء ، مثل المتعة ..." [٢]وهذا البحث يرجع الفضل فيه من أوله إلى آخره لشيخي ، وشيخ شيخي،أما شيخي فهو أحد تلامذة لسان الإسلام الناطق، وترجمانه الصادق ، وسيفه الماحق فضيلة الشيخ / يوسف الدجوي ، وقد تتلمذ عليه شيخي مباشرة وعرفني به وبفضله وبفتواه عن هذا الموضوع، ومنها استفدت كثيرا في هذا البحث.

وعلى درب فضيلة الشيخ يوسف الدجوي تعلمت من فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد ربيع جوهري الذي أعارني فتاوى الشيخ ومعه خلاصة رأي فضيلته في هذه المسألة في بضع ورقات كان لها أعظم الأثر في مساعدتي في إتمام هذا البحث فجزاهم الله جميعا خير الجزاء.

أيضا استفدت كثيرا من كتابين لفضيلة مولانا الشيخ / سلامة العزامي _ رحمه الله _ وهما فرقان القرآن، والبراهين الساطعة ، وفيهما من العلم كثير في هذه المسألة وغيرها.

أيضا استفدت من كتاب الأستاذ/ السقاف مع ما فيه من الحدة أحيانا بالإضافة إلى بعض تعليقات الأستاذ/ سعيد فودة ،وبعض مواقع الإنترنت .

وأختم مقدمتي بمقولة لابن القيم _ رحمه الله _ يقول : " فيا أيها القارئ له ، والناظر فيه ، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروض عليك ، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ، ولك ثمرته ، وعليه عائدته ، فإن عدم منك حمدا وشكرا فلا يعدم منك مغفرة وعذرا،وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح "[٣].

١_ الفرق بين النصيحة والتعير : صـ ١١

٢_ اصلاح غلط أبي عبيد : صـ ٤٦، ٤٧ المقدمة

٣_ طريق الهجرتين وباب السعادتين المقدمة صـ ٩

أولاً : من الناحية العقلية المنطقية هذا التقسيم لا يستقيم:

هذا التقسيم أصلاً ليس تقسيماً، لأنه مختل و متناقض، فبالنظر للصناعة العقلية و القوانين المنطقية النابعة من الأفئدة التي أنعم الله بها علينا يتبين أن هذا التقسيم ملفق، والتقسيم الملفق لا يجوز الاعتماد عليه في بناء الأحكام، ولا اتخاذ المواقف.

فالتقسيم كما يقول علماء المنطق والبحث والمناظرة نوعان[1]:

تقسيم الكلي إلى جزئياته.

تقسيم الكل إلى أجزائه.

أما النوع الأول: فكل واحد من الجزئيات يجوز أن يحمل اسم الكلي عليه لأن الكلي جنس لها، وهي أنواع له، مثال تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، فيجوز بعد هذا أن يقال الاسم كلمة والفعل كلمة والحرف كلمة، لأن الكلمة جنس و الثلاثة أنواع لها.

وأما النوع الثاني: فلا يجوز أن يطلق اسم الكل على الجزء إلا مجازاً وبقرائن كما وضحه العلماء في كتب اللغة، لأن الجزء ليس له كل أحكام الكل، بل ربما يكون له بعضها، أما النوع فله كل خصائص الجنس وزيادة، لذا يجوز إطلاق اسم الجنس عليه.

وأيضا يفرق بينهما أنه يجوز في تقسيم الكلي إلى جزئياته دخول حرف انفصال مثل (إما) بين الأقسام بخلاف تقسيم الكل إلى أجزائه ، فلا يجوز ذلك .

فمثلا نقول : الكلمة إما معربة وإما مبنية، ولا يجوز أن نقول : المنزل إما حوائط ، وإما سقف .

وهنا نسأل :هل تقسيم التوحيد إلى ربوبية وإلهية وأسماء وصفات من النوع الأول أم الثاني ؟

والجواب:

لايجوز أن يكون هذا التقسيم من النوع الأول أو من النوع الثاني، إلا إذا انطبقت عليه خصائص أي منهما، وأما إذا لم يحقق شروط أي منهما فإنه يكون تقسيماً فاسداً وملفقاً، ومثل هذا التقسيم غالباً ما ينتج عنه أحكام فاسدة وذلك لأن التقسيم أصلاً يلجأ إليه لتسهيل الوصول إلى الحكم الصحيح، فلذا يجب الالتزام بقوانين كل قسم، أما عند عدم الالتزام، فيؤدي التقسيم إلى أن يفضي بالناظر فيه إلى الغلط والأمور الباطلة.

لايجوز بناء على هذا أن يكون التقسيم المذكور من تقسيم الكلي إلى جزئياته لأنه ليس كل قسم يملك أحكام

١- انظر شرح الآمدي على الولدية في آداب البحث والمناظرة للعلامة محمد المرعشي المعروف بساجقلي زاده طبعة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م طبعة الحلبي صـ ٣٥ _ ٤٤ وأيضا ضوابط الفكر للأستاذ الدكتور محمد ربيع الجوهري الطبعة الخامسة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م طبعة مكتبة الإيمان صـ ٩١ _ ٩٥

المقسم، وهو مطلق التوحيد، أو التوحيد الخالص فحسب ما يقوله ابن تيمية، أن من كان موحداً توحيد ربوبية فلا يلزم أن يكون مؤمناً، ونحن نعلم أن الموحد مؤمن، إذن ليس التقسيم المذكور من النوع الأول، وبطلان كونه من هذا النوع واضح لا يحتاج إلى زيادة كلام.

فهل يجوز أن يكون من تقسيم الكل إلى أجزائه ؟

الجواب:

أيضاً لايجوز حسب الصناعة العقلية أن يكون من تقسيم الكل إلى أجزائه، لأن شرط هذا النوع أن ألا يكون هناك اشتراك واتحاد بين الأقسام، وإلا لم تصبح أجزاء متميزاً بعضها عن بعض لوجود الاشتراك بينها،وبيان هذا كما يلي:

أن ابن تيمية يقول:

(أن الموحد توحيد ربوبية لا يلزم كونه موحداً توحيداً كاملاً، بل قد يكون موحداً توحيد ربوبية،ومشركاً في الإلهية).

ولكن الموحد في الإلهية يجب أن يكون موحداً في الربوبية وفي الأسماء والصفات، إذن فيلزم أن يكون توحيد الربوبية قسيماً للإلهية، وقسماً منه في نفس الوقت، وهذا كلام باطل فاسد.

إذن يتبين أن هذا القسم لا يحقق شروط تقسيم الكل إلى أجزائه .

وأيضاً:لم يجوز ابن تيمية أن يطلق على كل قسم أنه توحيد، والحال أنه لا توجد علاقة بينهما، لا علاقة عقلية ولا شرعية ولا عادية، لأنه يقول أن الشرع إنما جاء ليحقق توحيد الإلهية، وأن الناس عند نزول الشرع كانوا موحدين توحيد ربوبية، وأن الشرع قد أقر واعترف أنهم موحدون توحيد ربوبية ولكن دعاهم إلى توحيد الإلهية. كذا يقول. فما دام الأمر كذلك فلا يوجد تلازم بين هذه الأمور بين بعضها البعض، ولا بينها كلها وبين أصل التوحيد فلم يطلق على كل أمر منها أنه توحيد؟!

فهذا الإطلاق فاسد لا أساس له

وخلاصة هذا الكلام وحاصله أن هذا التقسيم لا هو من تقسيم الكل إلى أجزائه ولا هو من تقسيم الكلي إلى جزيئاته، بل هو تلفيق منهما ومن غيرهما لذا لزمته الأحكام الفاسدة التي نراها.

ثانيا : هذا التقسيم لم يأت عن الله في كتابه ، ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم في سنته الشريفة ، ولم يأت عن أحد من الصحابة ولا عن أحد من تابعيهم رحمه الله وأول من شهر هذه

القسمة هو ابن تيمية في القرن الثامن الهجري.

فلم يرد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سنته الواسعة أنه سماهم موحدين للربوبية، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد دخل في الإسلام إن هناك توحيدين، وأنك لا تكون مسلما حتى توحد توحيد الألوهية، ولا أشار إلى ذلك بكلمة واحدة.

و لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه قال في حقهم أو عنهم: (إيمان دون إيمان) مثل ما نقل عن بعضهم (كفر دون كفر)، وهذا ما يؤكد لنا ويدل بأن اللغة التي كان صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ينطقون بها والعرف الذي كان سائداً بينهم يمنعان إطلاق موحد أو توحيد ربوبية على ذلك الإنسان.[1]

فالله سبحانه بين لنا أن التوحيد هو لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولم يذكر الله تعالى في كتابه ولا النبي صلى الله عليه وسلم في سنته أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد ربوبية، وتوحيد ألوهية، وتوحيد أسماء وصفات، بل لم ينطق بهذا التقسيم أحد من الصحابة بل ولا أحد من التابعين بل ولا أحد من السلف الصالح رضى الله عن الجميع، فلماذا لايسعنا ما وسعهم؟[2]

كما لا يعرف في الشرع إطلاق اسم موحد على من كفر ولو بجزء من العقيدة، فلا يقال: عن الكافر إنه موحدٌ بجزء من العقيدة وكافر بجزء، فهذا التجزيء غير وارد في الشرع؛ لأن أصل الإيمان واحد لا يتجزأ قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: " والإيمان واحد وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى "[3]، فمن كفر بالألوهية كفر بالربوبية على التسليم بصحة القسمة.

والرسول صلى الله عليه وسلم قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله" لم يقل الرسول حتى يوحدّوا ثلاثة توحيدات. وهذا الحديث متواتر رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعٌ من الصحابة منهم العشرة المبشرون بالجنة، وقد أورده

[1] _ الشيخ / حسن بن علي السقاف: التنديد بمن عدد التوحيد الطبعة الثانية دار الإمام النووي ١٩٩١م _ ص ١٣، وانظر أيضا فتاوى الشيخ الدجوي ص ٢٤٩ مرجع سابق.

[2] _ فضيلة الشيخ يوسف الدجوي: مقالات وفتاوى ص ٢٤٩ مرجع سابق.

[3] _ شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: حققها وراجعها جماعة من العلماء _ خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني طبعة مكتبة الدعوة الإسلامية بدون تاريخ ص ٣١٣

البخاري في صحيحه، فثبت من هذا الحديث المتواتر أن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة باطل وأن من قسمه هم المبتدعة ولو زعموا أنهم يحاربون البدعة.

فقد أدخلوا في دين الله بدعة جديدة لم يقلها المسلمون وهي قولهم توحيد الربوبية وحده لا يكفي للإيمان بل لا بد من توحيد الألوهية وهذا ضد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ". فقد جعل الرسول اعتراف العبد بتفرد الله بالألوهية وبوصف رسول الله بالرسالة كافيا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نطق الكافر بهذا يحكم بإسلامه وإيمانه ثم يأمره بالصلاة قبل غيرها من أمور الدين للحديث الذي رواه البيهقي في كتابه الاعتقاد.

قد يقول بعض المتشيعين لصاحب التقسيم أن هذا التقسيم موجود في كلام الأئمة قبل ابن تيمية بعدة قرون.

يقول الشيخ بكر أبو زيد "هذا التقسيم الإستقرائي لدى مُتقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة و ابن جرير الطبري و غيرهما و قرره شيخا الإسلام ابن تيمية و ابن القيم و قرّره الزبيدي في تاج العروس و شيخنا الشنقيطي في اضواء البيان.. و هو استقراء تام لنصوص الشرع و مُطّرد لدى أهل كل فن كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى: اسم و فعل و حرف و العرب لم تفه بهذا و لم يعتب على النحاة في ذلك عاتب و هكذا من أنواع الإستقراء ".[1]

والشنقيطي يقول في كلام طويل في تفسيره "أضواء البيان" أن هذا التقسيم قددل عليه استقراءالقرآن العظيم[2].

وقبل أن نعلق على هذا النقل نلاحظ فقط اعتبار كلام أربعة أو خمسة أو حتى عشرة هو كلام متقدمي علماء السلف فهل هؤلاء هم علماء السلف، أو حتى نقول هل هؤلاء فقط هم علماء السلف؟؟؟

وهل معنى ذكرهم لهذا التقسيم إن صح يدل على أنه تقسيم استقرائي؟؟

وسنذكر أولا ما استدلوا به من كلام ابن بطة المتوفي سنة ٣٨٧هـ في

[1] - التحذير من مختصرات الصابوني: ص ٣٠

[2] _ تفسير أضواء البيان: جـ ٣ ص ٤١٠_٤١٤

كتابه " الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة "[1] وهم ينقلون عنه قوله : (وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه إذ قد علمنا أن كثيرا ممن يقر به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته فيكون إلحاده في صفاته قادحا في توحيده . ولأنا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها) .

وأول ما نعلق به على هذا النص أن نقول إن من ينقل هذا النص يدلس على من ينقله فينقله بهذه الصورة ليوهم القارئ أن ابن بطة يقول بنفس التقسيم ، رغم أن النص عند ابن بطة هو : " أن يعتقد العبد إنيته " وليس ربانيته !!!، وقد أعادها بعد النص مباشرة بما لا يدع مجالا للشك أنها صحفت.

ثم نقول إن ابن بطة يحكي هذا الكلام مناقشا للجهمية الذين أنكروا الصفات ثم يقول : "وأما محاجة الله خلقه في معنى صفاته التي أمرهم أن يعرفوه بها ، فبالآيات التي اقتص فيها أمور بريته في سماواته وأراضيه وما بينهما ، وما أخرجها عليهم ، من حسن القوام وتمام النظام ، وختم كل آية منها بذكر علمه وحكمته وعزته وقدرته ،مثل قوله عز وجل : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذاهم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها)[2] فإنه لما ذكر التدبير العجيب الذي دبر به أمرها أتبع ذلك بأن قال : (ذلك تقدير العزيز العليم)فإن هذا خرج في ظاهره مخرج الخبر وهو في باطنه محاجة بليغة ، لأن الذي يعقل تأويله أنه لو لم تكن قدرته نافذة لما جرت هذه الأشياء على ما وجدت عليه ،ولو لم يكن علمه سابقا لما خلقه قبل أن يخلقه ، فلما خرج على هذا النظام العجيب ، إذ كان مما تدركه

1- المجلد الثاني : صـــ ٣٥٦، ٣٥٧
تحقيق سيد عمران طبعة دار الحديث ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

2- سورة يس : الآيتان ٣٧، ٣٨

العقول أن المتعسف في أفعاله لا يوجد لها قوام ولا انتظام ، فهو عز وجل يستشهد خلقه بآثار صنعته العجيبة ، وإتقانه لما خلق ، وإحكامه على سابق علمه ونافذ قدرته ، وبالغ حكمته."[1]

ومعنى هذا النص كما فهمته أن ابن بطة يلزم الجهمي المنكر للصفات أنه إذا آمن بربوبية الله عز وجل عليه أن يؤمن بصفاته كلها للتلازم بينهما، وأظن أن هذا يخالف تماما ما بني عليه التقسيم .

فهل يا ترى يقول ابن بطة في هذا النص بمثل ما يقول ابن تيمية ؟ هل يقول بعدم التلازم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؟؟

وحتى لو كان ابن بطة يقول بهذا _ والحق أنه لا يقول _ فهل كلام ابن بطة يستدل به أم يستدل عليه ؟؟

أما استشهادهم بكلام العلامة ملا علي القاري حين يقول : (فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقرير توحيد الربوبية ، المترتب عليه توحيد الألوهية ، المقتضي من الخلق تحقيق العبودية ، وهو ما يجب على العبد أولا من معرفة الله سبحانه وتعالى . والحاصل أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية دون العكس في القضية ؛ لقوله تعالى " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله " وقوله سبحانه حكاية عنهم : " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " بل غالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما .فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوته إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في العقبى فهو جزاء توحيده ،وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوق أهله وثنائهم وفي شأن ذم الشرك وعقوق أهله جزائهم)[2]

1- الإبانة : جـ ٢ صـ ٣٥٧ مرجع سابق.

2- شرح الفقه الأكبر : صـــ ١٥

واستشهادهم أيضا بكلام الإمام الألوسي _ رحمه الله تعالى _ في كتاب [روح المعاني] حين يقول :

"وهي عند السادة الصوفية قدست أسرارهم جامعة لجميع مراتب التوحيد ودالة عليها إما منطوقا أو بالاستلزام..

ومراتبه أربع:

الأولى: توحيد الألوهية.

الثانية: توحيد الأفعال.

الثالثة: توحيد الصفات. وإن شئت قلت (توحيد الوجوب الذاتي) فإنه يستلزم سائر الصفات الكمالية كما فرعها بعض المحققين.

الرابعة: توحيد الذات. وإن شئت قلت (توحيد الوجود الحقيقي) فإن المآل واحد عندهم وبيان ذلك أن لا إله إلا الله منطوقة على ما يتبادر إلى الأذهان وذهب إليه المعظم قصر الألوهية على الله تعالى قصرا حقيقيا أي إثباتها له تعالى بالضرورة ونفيها عن كل ما سواه سبحانه كذلك وهو يستلزم توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات:"[1]

وكذلك بقول الخطيب القزويني : "قوله رب العالمين الدال على أنه مالك للعالمين لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته""[2]

فنحن نقول وبالله التوفيق إن هذه الاستشهادات وغيرها هي عموميات ليست في محل النزاع ، فلم يكن قصد كل من ذكر أقوالهم تقسيم التوحيد تقسيما منهجيّا إلى توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية---إنما جاء ذكرهم للألوهية أو للربوبية بنفس المعنى ومن قبيل التكرار كإشارة منهم للرب تعالى.

فأقوالهم _ رحمهم الله _ لا علاقة لها بالتقسيم الثلاثي المعهود، والكل مجمع على أنه لا يخرج شيء عن ملكوته وربوبيته.

فأغلب ما ينقل للاستشهاد به في هذا المقام عن العلماء السابقين إنما ينقل لاحتوائه كلمتي (ألوهية)و(ربوبية)! فيظنُّ أنها تؤدي إلى ما يريد! وليست هذه بطريقة للاستشهاد ابتداءً!

قد نقول إن مصطلح" توحيد ألوهية "و" توحيد ربوبية "مصطلح صحيح وذلك لوجود آيات تدل على هذا وأخرى تدل على ذاك ، ولعدم الترادف في اللغة كما هو مقرر عند علماء الأصول مثل استحالة ترادف كلمة "الإله "وكلمة" الرب "ولأن المصطلحات لا مشاحة فيها ومأخوذة من اللغة التي تقرر وجود فرق بين المعنيين وإنما خطأ المخالفين في سوء استخدام

---

[1]- تفسير روح المعاني للألوسي : جـ ٢٦ صـ ٥٩

[2]- الإيضاح في علوم البلاغة: جـ ١ صفحة ٥ - ٧ الطبعة الرابعة من دار إحياء العلوم — بيروت.

المصطلح وهذا لا يوجب نفي المصطلح، فمثلا (الإجماع) مصطلح مشترك بين السنة والإمامية ولكن فهمنا له غير فهمهم له والمصطلح هو لفظ لغوي والألفاظ إنما وجدت لتدل على المعاني .

فمن سمى مشركي قريش أو الكفار أنهم" موحدون بالربوبية "أخطأ في استخدام المصطلح ، وخطؤه في سوء فهمه لا في أصل المصطلح و سبب خطئه وهو أن كلمة" التوحيد "هي شرف وشرف كلمة التوحيد لا تنسب لأحد إلا عن طريق الرسول، وهناك فرق بين من عرف وجود الله أي لم يلحد وبين من أشرك مع الله وكفر برسوله فلم يأخذ التوحيد من الرسول فلم يعد يصلح أن يسمى موحدا توحيد ربوبية وسمي كافراً رغم أنه يعرف ويقر بوجود الله لأن عكس الكفر الإيمان ، والإيمان لابد لمن أرد أن يتحقق به أن يحقق أركانه. فالكفر بركن كفر بكافة الأركان وبالتالي يقال عنه كافر. ولذلك فالكفار كفروا بالرسول، وكفروا بالقرآن، وكفروا بالملائكة فلا ينفعهم مجرد تصديقهم بوجود الله عز وجل!!.

وخلاصة هذه المسألة أن هذا التقسيم لم يرد له ذكر قبل القرن الثامن الهجري ، يقول الدكتور طه حبيشي: "

وأنا ألفتك إلى التاريخ قبل القرن الثامن الهجري وحتى عقد المبعث ، تتبع فيه العلماء إلى الصحابة ، ثم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بحثا عن هذه الثلاثية ، وأنا زعيم لك بأنك لن تجد لهذه الثلاثية أثرا " [1]

ثالثا : لا نسلم أن المشركين يؤمنون بتوحيد الربوبية بل هم ينقضونه بأمور: منها : قولهم : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [2] .فقد نسبوا الإماتة والإهلاك إلى الدهر مع أنه فعل من أفعال الله على دعواهم أن توحيد الربوبية هو : توحيده بأفعاله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ..فكيف يقال بعد هذا أنهم مؤمنون بتوحيد الربوبية ؟!!

ومنها :نسبتهم الولد له بقولهم : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [3].

ثم قالوا هم بنات الله فرد عليهم الحق بقوله : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ

---

[1]- الاجتهاد في الإسلام تحرير وتنوير : طبعة مكتبة رشوان الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م صـ ٣٢٨

[2]- سورة الجاثية : الآية ٢٤

[3]- سورة الزخرف : الآية ١٩

﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ (١)

فهل يقال بعد ذلك لمن نسب لله الصاحبة والولد إنه موحد بالربوبية كما قال قائلهم: " أبو جهل وأبو لهب أكثر توحيداً لله وأخلص إيماناً به من المسلمين الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ويتوسلون بالأولياء والصالحين"

ومنها : إنكارهم للبعث وتكذيبهم للحق حين قالوا: ﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ (٢).

وقوله: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٣).

ويشهد لذلك من فعلهم ما قاله صنديدهم أبي بن خلف حين فتَّ العظم الرميم في وجه النبي وقال:أتزعم أن ربك يحيي هذا وقد أرم.

فقال الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٤).

أفيقال لمن أنكر قدرة الله على الإحياء مرة أخرى والبعث إنه مؤمن موحد توحيد الربوبية ؟!!

ومنها :إنكارهم للرحمن ابتداءً فكيف يوحدونه ؟!

فهم يقولون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ (٥)

قال ابن كثير –رحمه الله – عند هذه الآية :" وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن" أي لا نعرفه ولا نقر به"

فهم ينكرون الرحمن فكيف يوحدونه؟!

فإن قيل : إنما أبوا السجود وهو العبادة ؟ وإلا فهم مقرون بوجود الله تعالى بدليل قولهم في الحديبية : لا نعرف الرحمن الرحيم ولكن أكتب باسمك اللهم.

قيل لهم : كلامهم ذلك لنا لا لكم ؛

ووجه ذلك : أنهم قالوا : "باسمك اللهم" فلماذا لم يقولوا باسم الرب وإنما أتوا باسم الإله ؟ فهل هذا يدل على أنهم مؤمنون بتوحيد الألوهية ؟

وعليه نقول : إن الرب هو الإله الحق، والربوبية هي الألوهية لا انفكاك لأحدهما عن الآخر.

ومنها : أنهم يكفرون بالرحمن وكفرهم في الربوبية بدليل أمره لنبيه أن يقول لهم : هو ربي بعد تصريح النص القرآني بكفرهم به قال :{كَذَلِكَ

١- سورة الإسراء : الآية ٤٠

٢- سورة الإسراء : الآية ٤٩

٣- سورة الواقعة : الآية ٤٧

٤- سورة يس : الآيتان ٧٨، ٧٩

٥- سورة الفرقان : الآية ٦٠

أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فلا يقال إن كفار قريش بعد هذا يؤمنون بتوحيد الربوبية .﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم : ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (١) بل هذه الآية تدل على تلازم الربوبية والألوهية فلا انفكاك كما يزعمون.

بل إن القرآن يصرح بتعدد الأرباب عندهم فلو كان المشركون بالله مقرين بتوحيد الربوبية لما اتخذوا من دونه أرباباً ولأفردوه بالربوبية ووقعوا في شرك العبادة وحده ، ومما يدل على أنهم اتخذوا أرباباً من دون الله قول سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢) .ألم يكن من المناسب أن يقول لهم :"ءآلهة متفرقون " بدلاً من "أأرباب متفرقون"؟ – لما علم أنهم مؤمنون بتوحيد الربوبية – أو أنه أخطأ في لفظه ؟ ثم إذا أخطأ في لفظه فلماذا أقرَّه الله على خطئه؟وهل أنتم أفهم للتوحيد والدعوة من سيدنا يوسف عليه السلام؟!(٣)

يقول الشيخ سلامة العزامي : " وقول هؤلاء المغرورين : أن الكافرين الذين بعثت لهم الرسل كانوا قائلين بتوحيد الربوبية ، وأن آلهتهم لا تستقل بنفع ولا ضر ، وإنما كان شركهم بتعظيمهم لغير الله بالسجود له، والاستغاثة به ، والنداء له والنذر والذبح له إنما هو قول من لم يعرف التوحيد ولا الإشراك ولا المعقول ولا المنقول في كتاب الله وسنة رسوله ، ولا ألم بتاريخ الأمم قبل البعثة. ألم يحك الله في كتابه عن يوسف عليه الصلاة والسلام قوله في إرشاد صاحبي السجن (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)؟ هل يقال ذلك إلا لمن اعتقد أربابا ؟ ألا يكون هذا كفرا بتوحيد الربوبية ؟ ثم ترقى عليه الصلاة والسلام في استئصال جذور هذا الشرك فقال : (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) الآية ليقرر في نفوسهم توحيد الربوبية فيستتبع توحيد العبادة لا محالة .

ألم يحك الله عن قوم هود صلى الله عليه وسلم قولهم : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) فهذا صريح في اعتقادهم استقلالها بالضر والنفع .

وأخرج أبو نعيم وأبو حاتم وغيرهما عن بعض ولد راشد بنم عبد ربه السلمي _بضم السين وفتح اللام _ عن أبيه راشد

١- سورة الرعد : الآية ٣٠

٢- سورة يوسف : الآية ٣٩

٣- فتاوى الشيخ يوسف الدجوي : صـــ ٢٥١

في سبب إسلامه أنه كان سادنا أي خادما لصنم لبني سليم فبينا هو عنده إذ أقبل ثعلبان تشتدان حتى تسنماه فبال عليه أحدهما .فقال:

أرب يبول الثعلبان برأسه

لقد هان من بالت عليه الثعالب

ثم قال يا معشر سليم لا والله لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع فكسره ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم .فقال : ما اسمك ؟ فقال : غاوي بن عبد العزى فقال بل أنت راشد بن عبد ربه .والثعلبان بضم الثاء واللام ذكر الثعالب . فانظر إلى قوله أرب ولم يقل إله ؟.

ألم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مستفيضا بل متواترا معنويا أن المسيح الدجال _ أخزاه الله_ إذا أتى يقول للناس : ألست بربكم ؟

وفي الصحيح أن العبد إذا أذنب الذنب فقال: رب اغفر لي .قال الله :علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب ، غفرت لعبدي . الحديث .

وصح أن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما سمع قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم) الآية . قال : يا رسول الله إنهم ما كانوا يعبدونهم يعني الأحبار والرهبان ، فهل منشأ هذا السؤال إلا ما علم الخاص والعام أن اعتقاد الربوبية والعبادة لذلك المعتقد متلازمان نفيا وإثباتا ، ويقرر هذا المعنى فضل تقرير جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله الشريف " أليسوا كانوا يحلون لهم ما حرم الله ويحرمون عليهم ما أحل الله فيطيعونهم"؟قال: بلى .

وفي أم القرآن البيان الناصع والشفاء القالع لجذور داء هذه الأوهام فإنها بدأت ببيان أنه المنفرد بالربوبية على أكمل وجه حتى ينقلع الشرك فيها من النفوس لتنساق بكل يسر وتنطق منقادة عن طواعية واقتناع بقولها : إياك نعبد وإياك نستعين ، فكأنه تعالى يقول: إنكم تشركون غيرنا في الربوبية فلذلك عبدتم هذا الغير واستعنتموه استعانة المربوب بمن اعتقده ربا ، وإذ قد بان لكم أن لنا الانفراد بالربوبية لكل شيء ولا شريك لنا في ربوبية ما فقولوا إياك نعبد وإياك نستعين . فلا نعبد غيرك ولا نستعين غيرك استعانة مربوب برب . فهذه هي الاستعانة التي نفتها سورة الفاتحة وهي من فروع الكفر بتوحيد الربوبية . ولا يفعلها بحمد الله مسلم "[1].

من الناحية الشرعية: وهنا أنقل كلام الشيخ حسن بن علي السقاف

1- البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة : العلامة الشيخ سلامة القضاعي العزامي الشافعي طبعة مطبعة السعادة صـ 381_383

الذي بين تلك المسألة في كتابه (التنديد بمن عدد التوحيد)[1] فهو يقول:

(هب أن هناك قسماً من الجاهلين أو من أي طائفة من طوائف الكفار فيها أشخاص يقرون ويعترفون في غير مجال المضايقة في المناظرة أو يعترفون بأن الله هو الخالق المحي المميت، فإن هذا الإقرار منهم أو هذه المعرفة لا تجعل صاحبها يسمى أو يطلق عليه مؤمناً أو موحداً لا شرعاً ولا لغة ولا عرفاً البتة، أما شرعاً فالأدلة منها قوله تعالى: (ألا لله الدين الخالص و الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار)، فقد صرح هذا النص لنا بأن الواحد من أولئك مع قوله: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)، و تسليمنا جدلاً بأنه مقر بقلبه بانه معترف بوجود الله! وهذا ما يسميه الخصم توحيد الربوبية و مع ذلك كله أطلق عليه الله تعالى في كتابه كما ترون بأنه(كاذب كفار).

أما الاستدلال بقوله تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " [2] فلا يصح لأن قول المشركين " الله" جوابا على سؤاله صلى الله عليه وسلم لهم ، إنما قالوه كذبا وزورا مع مخالفة ذلك ما في بواطنهم ؛ لما قامت عليه الحجج البينات والبراهين الواضحات، ولذا كذبهم الله سبحانه وتعالى مباشرة بقوله : " فأنى يؤفكون" قال القرطبي في التفسير[3] : " أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي ، معناه أنهم يقولون ذلك بألسنتهم فقط عند إقامة الحجج عليهم ، وهم في الحقيقة لا يقولون بذلك ".

ومثله أيضا يقال في قوله تعالى : "ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون"[4]

ثم على فرض أنهم يقولون بذلك صدقا من قلوبهم وأنهم قد أقروا بأنه سبحانه وتعالى هو الخالق ، ومحيي الأرض بعد موتها ، فهل اكتمل عندهم توحيد الربوبية وصح أن يقال إنهم موحدون في الربوبية ؟!!!!!

1_ صـ 13

2- سورة العنكبوت : الآية 61

3- جـ 13 صـ 161

4- سورة العنكبوت :الآية 63

غاية ما في الأمر أنهم _ إن صدقوا _ أقروا بأنه سبحانه وتعالى الخالق ومحيي الأرض بعد موتها ... مما جاءت به النصوص ، لكن هل نسبوا الإهلاك إليه سبحانه وتعالى ؟ وهل نسبوا الضر والنفع إليه وحده ؟ وهل أقروا بأنه المدبر لا مدبر سواه في الكون ؟إلى غير ذلك من لوازم توحيد الربوبية .

"فالمشركون اعترفوا هذه الاعترافات من باب (الإفحام) وليس من باب الاقتناع، ولو كانوا صادقين في اعترافهم لنطقوا بالشهادتين ، وأتوا بلوازم هذا الاعتراف من العبادات الظاهرة ، فلذلك يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بلوازم هذا الاعتراف كما في قوله تعالى : (فقل : أفلا تتقون)(فقل :أفلا تذكرون)؟...الخ

فكان الله عز وجل يوبخهم بأنهم كاذبون ، وأنهم لا يؤمنون بالله عز وجل خالقا ورازقا ، كما لا يستطيعون في الوقت نفسه أن يقولوا أن الأصنام هي التي خلقت السماوات والأرض !! فبقوا بين الاعتراف بالقول(انقطاعا)وممارسة ما يخالفه (واقعا)[1]

رابعا خطأ ابن تيمية في قوله: "وأما توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف في أمورهم فلم يخالف فيه أحد من المشركين والمسلمين"

وهذا كلام باطل :فالكفار من زمن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام إلى زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على اختلاف في العقائد .

فمن الخطأ أن يقال أنهم مقرين بوجود الله تعالى على وجه العموم. و الله تعالى في كتابه يخبر عبدة الأوثان والأحجار وغيرها بأنه هو ربهم وما لهم رب سواه ليعبدوه .

فهو يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]

ويقول: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا

١ـ داعية وليس نبيا (قراءة نقدية لمذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التكفير): حسن بن فرحان المالكي طبعة دار الرازي الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م ص ٣٩، ٤٠ بتصرف يسير .

٢ـ سورة الأعراف : الآية ٥٤

يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]

ويقول : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2]

يقول ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية :

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده (كيف تكفرون بالله)أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره (وكنتم أمواتاً فأحياكم) أي وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى : ((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون)) فهذه الآيات تخبر الكفار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المتصرف في هذا الكون المستحق للعبادة فكيف يتخذون الأصنام أربابا من دونه تعالى؟ !

بل وهناك آيات كثيرة تدل على بطلان القول بأن الكفار كانوا موحدين للربوبية منها :

١ـ فهذا فرعون اللعين يقول ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ﴾[3] ويقول نفسه : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[4].

فهل يقال بعد هذا إن فرعون مقرٌ بتوحيد الربوبية ؟!! بل لو كان مقراً به لقال :" أنا إلهكم الأعلى " ولم يقل أنا ربكم الأعلى.

٢ـ مما يدل على عدم التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية : أن القائل ربي الله لا يكفيه هذا اللفظ بل لا بد من التصريح بقوله إلهي الله، لأن المشركين يقولون ربنا الله فيوحدونه بالربوبية،ويشركون به في الألوهية على فرض صحة التقسيم، ولما صح مدح قوم قالوا ربنا الله إلا لما كان مغنياً عن التصريح باللفظ الآخر فقد مدح الله أقواماً بقوله ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[5].

١ـ سورة البقرة : الآية ١٦٤

٢ـ سورة البقرة : الآية ٢٨

٣ـ سورة القصص : الآية ٣٨

٤ـ سورة النازعات : الآية ٢٤

٥ـ سورة فصلت : الآية ٣٠

ولا بأس على هذا دعوى التصريح بتوحيدي الربوبية والألوهية في الآية بأن الربوبية في قوله : "ربنا الله" والألوهية بقوله : "استقاموا" ، لأن الثاني وهو الاستقامة نتيجة للأول فلا يتحقق الفلاح بمجرد الاستقامة دون التوحيد ، ثم المراد : أنه قال : ربي الله ثم استقام على ذلك الإيمان وعاش عليه حتى مات قال سيدنا أنس بن مالك: قرأ علينا رسول الله هذه الآية : " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها" رواه النسائي

وأورد ابن جرير رحمه الله في تفسيره أن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق هذه الآية " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " قال :هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً.

٣_ لو كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية لما أمرهم الله به بقوله : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} ولم يقل إلهكم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١]

وكان اللازم _على كلامهم _أن يقول الحق : "اعبدوا إلهكم" ؛ إذ إن أمرهم بما هو كائن منهم عبث ، لأنه طلب لموجود !!والله منزه عن ذلك.

وهاهو نبي الله عيسى ابن مريم يقول للمشركين : {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}

فهو عليه السلام يأمرهم بعبادة الرب الإله مع أنهم قالوا عنه ابن الله !! فهل من زعم لله ولداً يكون مقراً بتوحيد الربوبية والخلل عنده في الألوهية ؟! ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٢]

٤_ لما أخذ الله الميثاق من العباد قال لهم : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ} والتعبير هنا "بربك" يدل على ما ذكرناه : من أن الإله هو الرب ، وأنه لا فرق بين التوحيدين؛ وإلا لكان الأولى أن يأتي التعبير بلفظ :"إلهك" مفارقةً للمشركين الذين يؤمنون بالربوبية كما يقوله بعض الناس ﴿مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٣] فانظر لقوله:" ألست بربكم"؟ فكيف

١ سورة البقرة : الآية ٢١

٢_ سورة المائدة : الآية ٧٢

٣_ سورة الأعراف : الآية ١٧٢

يؤخذ الميثاق عليهم في الربوبية إذا كان المؤمنون والمشركون _كما يقول ابن تيمية_ كلهم مؤمنون به _ أعني الربوبية ؟! فكان اللازم أن لا يأمرهم بما هم مقرون به بل كان اللازم أن يأمرهم بالألوهية ويأخذ علهم الميثاق في ذلك.

٥_ جاء في السنة الشريفة في حديث البراء الطويل قوله :".. فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ. فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الإِسْلاَمُ..."الحديث .

فانظر إلى قول الملكين : من ربك ؟

فعلى القول بأن المشركين مقرون بتوحيد الربوبية سيجيب الواحد منهم على هذا السؤال قطعاً ؛ لأنه سئل عما يقرُّ به ، وكان الواجب على الملكين أن يسألا العبد عن الألوهية فيقولان : من إلهك ؟ حتى يتبين المؤمن بتوحيد الألوهية من المؤمن بتوحيد الربوبية فقط !!

وعليه يقال : إنه لا فرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية بل هما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

٦_ من اعتقد أن غير الله يضرُّ وينفع فقد نسب شيئاً من خصائص الله تعالى لغيره وهذا نقض لتوحيد الربوبية على حدهم وتعريفهم الذي ذكروه ، وهاهم المشركون في مشهد آخر ذكره القرآن الكريم : ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[١].

فقول قوم هود عليه السلام له :"إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .." مبني على اعتقادهم أن غير الله يضر وينفع وهذا كما مرَّ بك نقض لتوحيد الربوبية ، فكيف يقال : إنهم مؤمنون بتوحيد الربوبية وهم يعتقدون أن أصناماً يعبدونها من دون الله تضرُّ وتنفع ؟!! إن هذا لشيء عجاب.

٧_ كيف يقال : إن النبي لم يقاتل مشركي مكة إلا لنقضهم توحيد الألوهية، ولم يقاتلهم لتوحيد الربوبية !! وهم يقولون : لله صاحبة وولد وأن الملائكة بنات الله ﷻ ...؟! ثم لو أنهم – أعني المشركين – آمنوا بتوحيد الألوهية وصلوا لله ، وصاموا لله ، ولم يذبحوا لغير الله ، ولم يدعوا غير الله ..أ.خ ، لكنهم باقين على نسبة الصاحبة والولد ، فهل يتوجب على النبي مقاتلتهم بذلك أم أن دماءهم وأموالهم قد عصمت ؟!

١_ سورة هود : الآية ٥٤

خامسا :الخطأ اللغوي التعبير عن الكون إلهًا بالألوهية :

فإن الألوهية هي العبادة والتعبير الصحيح عن الكون إلهًا هو الإلَهية، وليس الألوهية.

وأما كلمة الألوهية فبمعنى العبادة، ويقال فيها: أُلُوهَةٌ وإلَهة، وقال أهل اللغة: التألُّه هو التعبد والتنسك، والتأليه هو التعبيد، وقالوا: إلَه على وزن فعال هو بمعنى مفعول، أي: مألوه بمعنى معبود، سواء كان معبودا بحق أم بباطل، فالإلَه هو المعبود

ففي مادة وحد يقول الفيروزآبادي :"التَّوحيدُ تَوْحيدان . تَوْحيد الرُّبوبِيَّة وتَوْحيدُ الأُلهيَّة . فصَاحبُ تَوْحيد الرَّبانيَّة يَشْهَد قَيُّومِيَّةَ الرَّب فَوْقَ عَرْشه يُدَبِّرُ أَمْرَ عبادِه وَحْدَه فلا خالقَ ولا رازقَ ولا مُعْطِيَ ولا مَانِعَ ولا مُحْيِيَ ولا مُميتَ ولا مُدَبِّرَ لأَمْرِ المَمْلَكَة ظاهراً وباطناً غيرُه فما شاءَ كانَ وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ولا تَتحرَّكُ ذَرَّةٌ إلاَّ بإذْنه ولا يَجُوز حادثٌ إلاَّ بمَشيئَته ولا تَسقُط وَرَقَةٌ إلاَّ بعلْمه ولا يَعْزُب عنه مثْقالُ ذَرَّة في السَّموات ولا في الأَرْض ولا أَصْغَرُ من ذلك ولا أَكْبَرُ إلاَّ وقد أَحْصاها علْمه وأَحاطتْ بها قُدْرَتُه ونَفَذَتْ فيها مَشيئَته واقْتضتْها حكْمَتُه . وأَمَّا تَوْحيدُ الإلهيَّة فهو أن يُجمَعَ همَّتَه وقَلْبَه وعَزْمَه وإرادَتَه وحَرَكاته على أداء حقِّه والقيامِ بعُبُوديَّته[1]

ويقول الزبيدي في تاج العروس :

((التَّوحيدُ تَوحيدان . تَوْحيدُ الرُّبوبيَّة وتَوحيدُ الأُلهيَّة . فصاحبُ تَوْحيد الرَّبانيَّة يَشْهد قَيُّوميَّةَ الرَّب فَوْقَ عَرْشه يُدَبِّرُ أَمْرَ عباده وَحْدَه فلا خالقَ ولا رازقَ ولا مُعْطيَ ولا مَانعَ ولا مُحْييَ ولا مُميتَ ولا مُدَبِّرَ لأمْرِ المَمْلَكَة ظاهراً وباطناً غيرُه فما شاء كان وما لم يَشأْ لم يَكُن ولا تَتحرَّكُ ذَرَّةٌ إلاّ بإذنه ولا يَجُوز حادثٌ إلاّ بمشيئته ولا تَسْقُط وَرَقَةٌ إلاّ بعلمه ولا يَعْزُب عنه مثقالُ ذَرَّة في السَّموات ولا في الأَرْض ولا أَصْغَرُ من ذلك ولا أكْبَرُ إلاّ وقد أَحْصاها علْمُه وأَحاطتْ بها قُدْرَتُه ونَفَذَتْ فيها مَشيئَتُه واقْتَضَتْهَا حكْمَتُه. وأَمّا تَوْحيدُ الإلهيَّة فهو أن يُجْمعَ همَّتَه وقَلْبَه وعَزْمَه وإرادَتَه وحَرَكاته على أداء حَقّه والقيامِ بعُبُوديَّته . وأَنشَدَ صاحبُ المَنازل أبياتاً ثَلاثَةً خَتم بها كتابَه :

مَا وَحَّدَ الوَاحدَ منْ وَاحد ... إذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَه جاحدُ.....))[2]

فظهر من هذا أن الألوهية بمعنى العبادة، وليس بمعنى الكون إلها، وأن

[1]- أنظر لسان العرب والقاموس المحيط

[2]- جـ ١ صـ ٢٣٢٧

إطلاقه على هذا المعنى في كلام كثير من العلماء لحن، وإنما الذي يصح إطلاقه على هذا المعنى هو كلمة "الإلَهية" مصدر جعلي من كلمة الإلَه، وهو الذي استعمله المحققون من العلماء، فمعنى لا إلَه إلا الله لا معبود بحق إلا الله، بمعنى لا متصف بالصفات التي لأجلها استحق أن يكون معبودا إلا الله، وهذه الصفات هي المسماة بخواص الإلَهية، وهي خلق العالم وتدبيره وتربيته أي تبليغه إلى الكمال شيئا فشيئا، والغنى المطلق عن غيره، وافتقار ما سواه إليه وتفرده بحق التشريع، ويتفرع عن هذه الصفات وينبني عليها استحقاق العبادة.

سادسا : ويتعلق بالقسم الثالث من التقسيم الثلاثي وهو «توحيد الأسماء والصفات» فقد قصد به صاحب التقسيم أن يثبت لله من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه بدون إهمال شيء مما أثبته لنفسه بأن ينفي عن الله تعالى بعض ما أثبته لنفسه، ولا أن يزاد عليها بأن يثبت لله تعالى من الأسماء والصفات ما لم يثبت إطلاقه على الله تعالى في الكتاب والسنة الصحيحة. هذا هو الذي قرره صاحب التقسيم وسماه «توحيد الأسماء والصفات».

يقول الشيخ محمد أبو زهرة : والحق أنه في هذا الباب يعتمد على أصلين : (أحدهما) إثبات كل ما جاء في القرآن والسنة لا يؤوله ولا يخرجه عن ظاهره ، ولا يفكر في أنه على أنه مستحيل عقلي في ظاهره ، ويخضعه لحكم العقل حتى يكون موائما له متلاقيا معه بل إنه لا عمل للعقل في هذا إلا التفويض .

(ثانيهما) تقرير أن ظاهر القرآن والسنة لا يقتضي التشبيه أو التجسيم لأن ما يثبت لله بنصهما ليس من جنس ما يثبت للحوادث ، بل إنها صفات وأحوالا تليق بذاته الكريمة ، وبما يجب له سبحانه من تنزيه ووحدانية فالتشابه في الاسم لا يقتضي التشابه في الحقيقة ، والمنفي ليس هو التشابه في الأسماء إنما المنفي هو التشابه في الحقائق ، وأن الله سبحانه وتعالى مخالف للحوادث في ذلك تمام المخالفة " [1] .

ويقول : " ولكننا ونحن نقرر أن ابن تيمية ينفي التشبيه والتجسيم عن مذهبه الذي هو مذهب السلف في اعتقاده نراه يثبت الفوقية وأن الله فوق ، ويستدل على ذلك بظاهر النصوص "[2] .

[1]- ابن تيمية حياته وعصره آراؤه وفقهه طبعة دار الفكر العربي بدون تاريخ صـ ٢٦٧

[2]- المرجع السابق صـ ٢٦٩

ثم يقول : "ولا تتسع عقولنا لإدراك الجمع بين الإشارة الحسية بالأصابع والإقرار بأنه في السماء ، وأنه يستوي على العرش ، وبين التتريه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث .

وأن التأويل بلا شك في هذا يقرب العقيدة إلى المدارك البشرية ، ولا يصح أن يكلف الناس ما لا يطيقون، وإذا كان ابن تيمية قد اتسع عقله للجمع بين الإشارة الحسية وعدم الحلول في مكان ، أو التتريه المطلق فعقول الناس لا تصل إلى سعة أفقه إن كان كلامه مستقيما .

ومن الغريب أن ابن تيمية يغضب تلك الغضبات الشديدة ضد الذين يؤولون تلك النصوص ، أو على حد تعبيره يفسروها تفسيرا مجازيا باعتبار معنى (في السماء) هو العلو المعنوي ، والتقدير للرزق الذي لا يصل إليه أحد من الخلق ،الذي عبر عنه بقوله تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون).

وفي الوقت الذي يغضب فيه الغضب الشديد ، ويستنكر ذلك الاستنكار الشديد نراه يعتبر كل الأسماء الواردة في نعيم الجنة مجازية ......

فإن كان يجري المجاز ويقبله في هذا الباب ؛ أفلا يكون من السائغ إجراء المجاز حتى تبعد عن كل نطاق الجسمية ، ومسارب الشك إلى النفس ؛ قد يقول إنه في هذا كان متبعا لما يجيء في النصوص ، وليس محكما للعقل المجرد في الشرع المحكم ، فإنه قد ورد عن النبي حكايته عن ربه أنه قال : (أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت) وابن عباس قد نقل عنه أنه قال (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء) فكان النص موجبا لأعمال المجاز ، ولم يرد في مسألة الصفات عن الصحابة والتابعين نص لصرف اللفظ من الحقيقة إلى المجاز ، ولو قلنا إن العقل هو الذي يقيد ، لكان ذلك سيطرة للعقل على نصوص الشرع ، وهذا منطق ابن تيمية .

ولكننا نرى أن الصحابة إذا كانوا قد سكتوا في هذا الأمر فلم ينقل عنهم نفي للتأويل ، وإذا كانت العبارات المروية تدل على التفويض ، فليس في العبارات المروية إقرار للجهة .

وفوق ذلك أن ما ساقه ابن تيمية من النصوص المجاز فيها واضح حتى كأنه الحقيقة مثل : (إليه يصعد الكلم الطيب) ، ومثل قوله تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون).

وبعض هذه النصوص الدلالة على أن الله في السماء دلالة ضمنية لا صريحة

مثل إشارة النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع عندما قال :(اللهم فاشهد).

....

وننتهي من هذا إلى أن ابن تيمية يرى الألفاظ في اليد والترول والقدم والوجه والاستواء على ظاهرها ، ولكن بمعان تليق بذاته الكريمة كما نقلنا من قبل.

وهنا نقف وقفة : أن هذه الألفاظ وضعت في أصل معناها لهذه المعاني الحسية ، ولا تطلق على وجه الحقيقة على سواها ؛ وإذا أطلقت على غيرها سواء أكان معلوما أم كان مجهولا فإنها قد استعملت في غير معناها ؛ ولا تكون بحال من الأحوال مستعملة في ظواهرها ، بل تكون مؤولة ، وعلى ذلك يكون ابن تيمية قد فر من التأويل ليقع في تأويل آخر ، وفر من التفسير المجازي ليقع في تفسير مجازي آخر .

ثم ما المآل وما الغاية من التفسير الظاهري أيؤدي إلى معرفة حقيقة ، أم لا يؤدي إلا إلى متاهات أخرى ، إنه يقول إن الحقيقة غير معروفة ، فيقول إن الله له وجه غير معروف الماهية ، وله استواء غير معروف الماهية ، ويد غير معروفة ، وقدم غير معروفة إلى آخر ما يجرنا إليه رضي الله عنه من إثبا ما ليس بمعروف .

إننا بلا شك إذا فسرنا تلك المعاني بتفسيرات لا تجعلنا نحيلها على مجهولات يكون ذلك التفسيرأحرى بالقبول ، ما دامت اللغة تتسع له ، وما دام المجاز بينا فيها ، كتفسير اليد بمعنى القوة أو النعمة ، والاستواء بمعنى السلطان الكامل ، وتفسير الترول بفيوض النعم الإلهية الخ . ولا يعترض بأن ذلك ليس فيه أخذ بالظاهر لأن الذي اختاره أيضا ليس فيه أخذ بالظاهر .

ولكن ابن تيمية يقول إن جاز إطلاق لفظ قدرة على قدرة الله تعالى ولفظ على علمه سبحانه ، وكلاهما ليس مشابها لقدرة الناس وعلمهم ، فكذلك يطلق الاستواء ، ولا يكون كاستواء الناس ؛ ونقول إن إطلاق اسم القدرة على وصف الله تعالى لم يؤد إلى ذلك التشابه وليست القدرة جارحة كاليد . حتى نقول إن ظاهرها هو ظاهرها ، بل القدرة والعلم والإرادة في الناس أمور معنوية ، فيصح أن تكون ظاهرة في المعنى الكامل ، كما هي ظاهرة في المعنى الناقص ، وقدرة الله هي الكاملة ، وقدرة الإنسان هي الناقصة"[1].

1- المرجع السابق : ص270_277

ونكتفي في التعليق على هذا الموضوع بهذا النقل وإن كنا نريد أن نبين خطورة هذا الأمر حيث أن ابن تيمية قد أثبت لله تعالى أمورا لم يرد بها الكتاب ولا السنة حيث أثبت لله تعالى ما يلي:

الحد. انظر (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول)[١]

الجلوس على العرش قال في مجموع الفتاوى: حدث العلماء المرضيون والأولياء المتقون أن محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يجلسه ربه على العرش معه...[٢] وقد أشار إليه ابن القيم في بدائع الفوائد.[٣]

يقول بجواز إطلاق أن الله تعالى جسم قال في التأسيس في رد "أساس التقديس" (وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها أنه ليس بجسم وأن صفاته ليست أجساما ولا أعراضا)[٤] وسيأتي عن الإمام أحمد نفي الجسمية عن الله تعالى.

ويقول في كتابه التأسيس: ولو شاء —الله— لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته فكيف على عرش عظيم. والإستقرار من لوازم الجسمية.

ويقول في كتابه "بيان تلبيس الجهمية":[٥] ما نصه: (فاسم المشبهة ليس له ذكر بذم في الكتاب والسنة، ولا في كلام أحد من الصحابة والتابعين) ومعنى هذا أن التشبيه ليس به بأس.[٦] هذا ما يراه ابن تيمية مخالفا لقوله تعالى: (ليس كمثله شيء) وقوله: (ولم يكن له كفوا أحد) ومخالفا الأمة وسيأتي قريبا نقل جملة من أقوالهم في ذلك.

وأيضا قد أثبت لله تعالى أمورا ورد في الكتاب والسنة إطلاقها على الله تعالى على سبيل المجاز أو الكناية، فأثبتها لله تعالى على سبيل الحقيقة، فأدى به ذلك إلى التشبيه الذي لا يرى به بأسا، ويكون بذلك مخالفا لكتاب الله ولسنة رسول الله ولسلف الأمة.

وننقل هنا مجموعة من أقوال علماء الأمة وأئمتها من السلف والخلف في نفي التشبيه عن الله تعالى.

فنقول: نقل الذهبي عن الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه قال: (أتانا

١- جـ٢/٢٩.

٢- جـ٤/٣٧٤.

٣- جـ٤/٣٩.

٤- جـ١/١٠١.

٥- جـ١/١٠٩.

٦- جـ١/٥٦٨.

من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل ومقاتل مشبه)[١] وذكر ابن جرير الطبري في تفسير سورة الإخلاص عن أبي العالية وغيره من السلف: (أن الله تعالى ليس له شبيه ولا مثيل)

ونقل الإمام البيهقي في كتابه مناقب الإمام أحمد عن الإمام أحمد ما نصه:

(أنكر أحمد على من قال بالجسم، وقال: إن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف. والله سبحانه خارج عن ذلك كله، فلم يجز أن يسمى جسما لخروجه عن معنى الجسمية، ولم يجيء في الشريعة ذلك فبطل) انتهى.وهذا الكلام بنصه وارد في ذيل طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى منسوبا إلى الإمام أحمد.[٢]

وورد في ذيل طبقات الحنابلة في ذكر عقيدة الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه: «كان الإمام أحمد — رحمه الله — يقول: إن لله تعالى يدين وهما صفة له في ذاته، ليستا بجارحتين، وليستا بمركبتين، ولا جسم ولا من جنس الأجسام، ولا من جنس المحدود والتركيب والأبعاض والجوارح، ولا يقاس على ذلك، ولا له مرفق، ولا عضد، ولا فيما يقتضي ذلك من اطلاق قولهم "يد" إلا ما نطق القرآن الكريم به، أوصحت عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم السنة فيه».[٣]

وفي ذيل الطبقات أيضا «أن الإمام أحمد كان يقول: والله تعالى لم يلحقه تغير ولا تبدل، ولا يلحقه الحدود قبل خلق العرش ولا بعد خلق العرش».[٤]

وقال الإمام الطحاوي في عقيدته التي هي بيان أهل السنة والجماعة باتفاق أهل السنة «وتعالى —أي الله— عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات».

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي: ما نصه: «وليس معنى قول المسلمين إن الله على العرش هو أنه تعالى مماس له، أو متمكن فيه، أو متحيز في جهة من جهاته، لكنه بائن من جميع خلقه، وإنما هو خبر جاء به التوقيف، فقلنا به ونفينا عنه التكييف إذ (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)»[٥]

١- سير أعلام النبلاء: ٢٠٢/٧.

٢- ٢٩٨/٢.

٣- ٢٩٤/٢.

٤- ٢٩٧/٢.

٥- أعلام الحديث شرح البخاري ١٤٧/٢.

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام: «ليس – الله – بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون والسموات، كان قبل أن كون المكان ودبر الأزمان، وهو الآن على ما عليه كان»[1]

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محالا على الله أن لا يوصف بالعلو، لأن وصفه بالعلو من جهة المعنى، والمستحيل كون ذلك من جهة الحس».[2]

وقال أيضا عند شرح حديث النزول: «استدل به من أثبت الجهة وقال هي جهة العلو، وأنكر ذلك الجمهور، لأن القول بذلك يفضي إلى التحيز، تعالى الله عن ذلك»[3]

وقال أيضا: «فمعتقد سلف الأمة وعلماء السنة من الخلف أن الله تعالى منزه عن الحركة والتحول والحلول، ليس كمثله شيء».[4]

وقال الشهرستاني: " وكانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا من حرك يده عند قراءته : خلقت بيدي أو أشار بإصبعه عند روايته " قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن " وجب قطع يده وقلع أصبعه . وقالوا : إنما توقفنا في تفسير الآية وتأويلها لأمرين :

أحدهما : المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ [آل عمران : ٧] فنحن نحترز عن التأويل .

والثاني : أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق ، والقول في صفات الله تعالى بالظن غير جائز ، فربما أولنا الآية على غير مراد الباري تعالى فوقعنا في الزيغ ، بل نقول كما قال الراسخون في العلم " كل من عند ربنا " آمنا بظاهره وصدقنا بباطنه ووكلنا علمه إلى الله تعالى . ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك ، إذ ليس من شرائط الإيمان وأركانه. "

قال الشهرستاني : " واحتاط بعضهم أكثر احتياط حتى لم يقرأ اليد بالفارسية ولا الوجه ولا الاستواء ولا ما ورد من جنس ذلك ، بل إن احتاج في ذكرها إلى عبارة عبر عنها بما ورد لفظا بلفظ ، فهذا

[1] طبقات الشافعية الكبرى ٢١٩/٨.

[2] _ فتح الباري: جـ ٦ صـ ١٣٦.

[3] _ فتح الباري: جـ ٣ صـ ٣٠.

[4] _ جـ ٧: صـ ٢٤.

هو طريق السلامة ، وليس هو من التشبيه في شيء"[1]

سابعا: هل هذا التقسيم شرعي أم اصطلاحي :

التقسيم إما شرعي و إما اصطلاحي.

التقسيم الشرعي .. هو الذي أتى به الشرع، و بالفرق بين الأقسام فيه و بالحكم الشرعي لكل قسم.. مثاله تقسيم الشرع للشرك إلى أكبر و أصغر ..و التفرقة بينهما .. وأن الأكبر إذا مات صاحبه عليه بعد بلوغ الحجة يكون مخلدا في النار ، و أن الأصغر حكمه في الجملة حكم الكبائر إذا كان صاحبه معه أصل التوحيد فإنه في المشيئة إن شاء الله غفر له و إن شاء عذبه في النار و لا يخلد فيها .. هذا التقسيم شرعي .

التقسيم الاصطلاحي ... هو الذي اصطلح عليه الناس في مجال ما .. لتسهيل دراسة هذا المجال و التعامل مع وحدات أبسط لسهولة الفهم و هذا التقسيم قال فيه العلماء : لا مشاحة في الاصطلاح..

[1]- الملل والنحل : جـ ١ ١١٨، ١١٩ طبعة دار المعرفة بيروت .

مثل تقسيم العلوم الشرعية إلى عقيدة و فقه و سيرة و .... كان الأمر كتاب و سنة فقط .. لكن لتسهيل الدراسة .. فصل العلماء الآيات والأحاديث الخاصة بالأحكام الشرعية العملية و بوبوها على أبواب و سمي ذلك اصطلاحا : الفقه .. و هكذا في العقيدة و السيرة والمصطلح والأصول وأيضا تقسيم العلماء الدين إلى أصول وفروع.

لكن هذا التقسيم الاصطلاحي لا ينبني عليه أحكام .. فلا يقول أحد مثلا إن المخالفة في الأصول كفر و في الفروع خطأ أو بدعة .. ليس هذا مبنى التفريق ، لكن مخالفة المعلوم من الدين بالضرورة هي من يكفر صاحبها و إن كانت في الأصول أو الفروع .

إذا انبنى حكم على التقسيم الاصطلاحي صار مبتدعا .. إذا لم يحدث فلا مشاحة في الاصطلاح.

نعم لا مشاحة في الاصطلاح--ولكن إن صار الاصطلاح سيفا مسلطا على رقاب العباد يدخلون على أساسه الجنّة من يشاءون يصير الاصطلاح نقمة، فهم يقسمون التوحيد إلى توحيد ربوبية وألوهية وتوحيد أسماء وصفات--ويتهمون كثيرا من المسلمين بأنهم موحدو ربوبية فقط كالمشركين في مكة--أي أنّ كثيرا

من المسلمين في نظرهم يعترفون بوجود خالق مدبر متصرف ولكنهم لا يفردونه بالعبادة لذلك حملوا السلاح على مسلمي الحجاز تحت هذه الدعوى---أي بسبب بعض الأمور التي يرون كفر من أتى بها كالتوسل بالصالحين، والنذور ، وزيارة القبور.

إذن فقول أهل العلم لا مشاحة في الاصطلاح هو قول ليس على عمومه، بل لابد من تقييده بألا يخالف اللغة والشرع ، قال ابن القيم في المدارج : (والاصطلاح لا مشاحة فيها إذا لم يتضمن مفسدة)[١].

لا مشاحة في الاصطلاح .. لكن إذا فرق شخص وقال مثلا توحيد الألوهية لا يعذر فيه، و الأسماء والصفات يعذر فيه فهذا التقسيم في هذه الحال مبتدع ..

ثامنا : تحديد معنى العبادة وحقيقتها:

وهو مهم في هذا المقام، إذ بتحديد معنى العبادة وحقيقتها، نعلم معنى التوحيد والشرك، ونميّز الموحّد عن المشرك في هذا المجال (أي مجال العبادة)، فالعبادة هي غاية التذلل والخضوع لمن يعتقده العابد ربا.

١- جـ ٣ : صـ ٣٠٦

يقول ابن منظور في " لسان العرب " مادة (عبد) : " العبد : الإنسان حرا كان أو رقيقا ... والعبد : المملوك خلاف الحر .. والجمع : أعبد وعبيد..

وأصل العبودية : الخضوع والتذلل ... والعابد : الموحد .. وعبد الله يعبده عبادة ومعبدا ومعبدة : تأله له .. والتعبد : التنسك .. والعبادة : الطاعة ... والمعبد : المذلل ، والتعبد : التذلل .. والتعبيد : التذليل .. وطريق معبد : مسلوك مذلل "

أما معنى العبادة شرعا وهذا هو مورد الكلام ومزلة الأقدام كما يقول الشيخ / سلامة العزامي " فإن الغلط فيه هو المزلقة الكبرى ، والمزلة العظمى ، التي استحلت بها دماء لا تحصى ، وانتهكت بها أعراض لا تعد . وتقاطعت فيها أرحام أمر الله بها أن توصل "[٢]

وسبب الزلل هنا هو تفسير العبادة بالإتيان بأقصى غاية الخضوع وهذا هو المعنى اللغوي كما رأينا أما المعنى الشرعي فهو أخص من هذا وهو الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلبا مع اعتقاد ربوبية

٢- فرقان القرآن : فضيلة الشيخ سلامة العزامي _ طبعة مطبعة السعادة صـ ١٥٦

المخضوع له، أو قالبا مع ذلك الاعتقاد فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهري من العبادة شرعا في كثير ولا قليل مهما كان المأتي به حتى ولو كان سجودا ، ما لم يكن يعتقد أن المخضوع له فيه خصيصة من خصائص الربوبية كالاستقلال بالنفع والضر[١].

وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إياهم ، وغيرهما من أنواع الخضوع ،لتحقق هذا القيد فيهم وهو اعتقادهم ربوبية ما خضعوا له ، أو خاصة من خواصها.

ولا يصح أن يكون السجود لغير الله _ فضلا عما دونه من أنواع الخضوع _ بدون هذا الاعتقاد عبادة شرعا ، فإنه حينئذ يكون كفرا ، وما هو بكفر ، فلا يختلف باختلاف الشرائع ، ولا يأمر الله عز وجل به (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء)[٢] (ولا يرضى لعباده الكفر)[٣] "[٤].

١- المرجع السابق : صـ ١٥٧
٢- سورة الأعراف : الآية ٢٨
٣- سورة الزمر : الآية ٧
٤- كلمة هادئة في بيان خطأ التقسيم الثلاثي للتوحيد : د/ عمر عبد الله كامل طبعة دار الرازي الثانية ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م صـ ٢٩، ٣٠

" فلم يكن سجود الملائكة لآدم ، ولا السجود ليوسف _ عليهما الصلاة والسلام _ مع خلو الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبية بمن سجدوا له _ كفرا بل هو من الملائكة عبادة لله الذي أمرهم به سبحانه ، وممن سجد ليوسف تحية جائزة ، ونسخ الجواز في شريعتنا .

وإنما حكم العلماء بالكفر على من سجد لشمس أو قمر أو وثن من أجل أنه أمارة على الكفر الذي هو إنكار ما علم من الدين بالضرورة كما حكموا بالإيمان_ وهو معنى قلبي _ لمن نطق بالشهادتين من أجل أنه دليل عليه،لا لأن الأول بمجرده كفر، والثاني بمجرده إيمان ، فالعبادة ليست صورا وحركات مجردة ،فلا بد من اعتقاد الألوهية في المعبود،وكذلك نية العبادة له"[٥].

" ويتضح من ذلك أن العبادة ليست مجرد إتيان العمل أو القول الذي يصلح للتعبد به ، بل هي إتيان تلك الأعمال والأقوال لمن يعتقد فيه شيئا من صفات الربوبية وخصائصها ، من تحليل ، أو تحريم ، أو علم ذاتي غير مكتسب ، أو نفوذ شفاعة بمقتضى الشراكة في الربوبية

٥- المرجع السابق: صـ ٣١، ٣٢

، أو نفوذ مشيئة بما جعلهم متصرفين فيه في أهل الأرض استقلالا بقدرة كن" نفعا وضرا ونصرا وإعطاء ومنعا وشراكة في الملك والربوبية " فذلك عبادة لله إن صرف له تعالى ، وشرك إن صرف لغيره ، لا فرق في ذلك بين وقوعه لحي أو ميت .

أما إن خلا العمل أو القول من نية العبادة لمن اتخذ ربا ، أو لمن اعتقد فيه شيء من خصائص الربوبية ، فليس من العبادة في شيء ، ولا يقال إنه عبادة لله أو لغيره .

ومما يوضح ذلك : السجود لآدم ـ عليه السلام ـ لما خلا من نية العبادة لآدم لم يكن شركا ، بل كان طاعة لله لاقترانه بنية الامتثال له تعالى .

والسجود ليوسف ـ عليه السلام ـ لما خلا من نية العبادة ، وكان تحية لـه لم يكن شركا ، ولم يكـن عبـدة لا لله ولا ليوسف .وإن كان سجود التحية قد حرم في شريعتنا.

وتعظيم البيت بـالطواف حولـه ، وتقبيل الحجر الأسود لما خليا من نية العبادة للبيت أو للحجر ، ولم يكن أحدهما شركا بل كان طاعة لله لا قترانه بنية الامتثال له تعالى "(1)

"وفي الحديث "أن معاذا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؟ فقال:إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك . قال : لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها " .

وفي حديث آخر : " أن سلمان لقي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة ـ وكان سلمان حديث عهد بالإسلام ـ فسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا تسجد لي ياسلمان واسجد للحي الذي لا يموت"

وإن تعسر فهم هذا وهو ليس بعسير إن شاء الله تعالى فانظر إلى نفسك فإنه قد يقضي عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها ، ولا يكون ذلك منك عبادة له ، لماذا ؟ لأنه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شيء من خصائص الربوبية فيه .

وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صليت لـه، وسر ذلك هو أن هذا الخضوع المثل

1- المرجع السابق : صـ ٣٥، ٣٦ بتصرف يسير

في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عز وجل "(1)

وعلى هذا يظهر التلازم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فلا يصح أن يكون موحداً في الألوهية إلا إذا كان يعتقد أن من يعبده رباً (الربوبية) فلا يتصور أن تكون هناك عبادة من غير اعتقاد ربوبية المعبود وإلا لانتفى مفهوم العبادة أصلاً، فاعتقاد ربوبية المعبود هو جزء لا يتجزأ من معنى العبادة.

فظهر من هذا أن توحيد الإلهية أي إفراد الله تعالى بالعبادة متفرع عن توحيد الربوبية ومنبن عليه وملازم له، فالناس إنما يعبدون من يعتقدون فيه الربوبية سواء اعتقدوا فيه ربوبية كبيرة مطلقة، وهذا ما أثبته المتألهون لله تعالى، أم اعتقدوا فيه ربوبية محدودة صغيرة مستمدة من الرب الأكبر، وهذا ما كان يعتقده في معبوديهم معظم أصناف الذين كانوا يعبدون إلها أو آلهة من دون الله، فإن معظمهم كانوا يعبدونهم بناء على اعتقادهم أن الله تعالى قد فوض إليهم التصرف في بعض الأمور، وتخلى لهم عنها، بمعنى أن الله تعالى قد خولهم ربوبية صغيرة محدودة فاستحقوا بذلك أن يُعْبَدُوا استعطافا لرحمتهم، وابتعادا عن غضبهم وسخطهم. فمن أجل أنهم اعتقدوا فيهم الربوبية اعتقدوا فيهم الإلهية.

"وقد استقر في عقول بني آدم ما داموا على سلامة الفطرة أم من ثبتت له الربوبية فهو للعبادة مستحق ، ومن انتفت عنه الربوبية فهو غير مستحق للعبادة فثبوت الربوبية واستحقاق العبدة متلازمان فيما شرع الله في شرائعه ، وفيما وضع في عقول الناس .

وعلى أساس اعتقاد الشركة في الربوبية بنى المشركون استحقاق العبادة لمن اعتقدوهم أربابا من دون الله سبحانه . ومتى انهدم هذا الأساس من نفوسهم تبعه ما بني عليه من استحقاق غيره للعبادة ولا يسلم المشرك بانفراد الله تعالى باستحقاق العبادة حتى يسلم بانفراده عز وجل بالربوبية وما دام في نفسه اعتقاد الربوبية لغيره عز وجل استتبع ذلك اعتقاده في هذا الغير الاستحقاق للعبادة"(2)

ولذلك كان من الواضح عند أولى الألباب أن توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر لا في الإعتقاد ولا في الوجود، وكان تقسيم التوحيد إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية بناء على انفصال أحدهما عن

1- فرقان القرآن : صـ ١٥٩

2- البراهين الساطعة : صـ ٣٧٨ مرجع سابق .

الآخر وعدم التلازم بينهما من الخطأ الواضح، فإنه من اعترف أنه لا رب إلا الله كان معترفا بأنه لا يستحق العبادة غيره، ومن أقر بأنه لا يستحق العبادة غيره كان مذعنا بأنه لا رب سواه. وهذا معنى لا إله إلا الله في قلوب جميع المسلمين.

ولذلك نرى القرآن في كثير من المواضع يكتفي بأحدهما عن الآخر، ويرتب اللوازم المترتبة على انتفاء أحدهما على انتفاء الآخر ليستدل بذلك على ثبوته، فانظر إلى قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[1] وقوله تعالى: (وما كان معه من إلّه إذا لذهب كل إلّه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض)[2] حيث رتب على تعدد الإلّه ما يترتب على تعدد الرب من فساد السموات والأرض ليثبت بذلك عدم تعدد الرب ووحدانيّتَهُ[3].

تاسعا تقسيم الأشاعرة للتوحيد:

قسم الأشاعرة التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال. قال كمال الدين ابن أبي شريف في المسامرة شرح المسايرة: التوحيد هو اعتقاد الوحدانية في الذات والصفات والأفعال[4].

أما توحيد الذات فمأخوذ من قوله تعالى: (قل هو الله أحد) وغيرها من الآيات، وأما توحيد الصفات فمأخوذ من قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) وقوله تعالى: (ولم يكن له كفوا أحد) وأما توحيد الأفعال فمأخوذ من قوله تعالى: (الله خالق كل شيء) وقوله: (والله خلقكم وما تعملون) إلى غيرها من الآيات الكريمة.

وقد يختصر الأشاعرة: فيقولون: التوحيد اعتقاد عدم الشريك في الإلهية وخواصها. قال سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد[5]:

((حقيقة التوحيد اعتقاد عدم الشريك في الإلهية وخواصها، ولا نزاع لأهل الإسلام في أن تدبير العالم، وخلق الأجسام، واستحقاق العبادة، وقدم ما يقوم بنفسه، كلها من الخواص...

وبالجملة فنفي الشريك في الإلهية ثابت عقلا وشرعا، وفي استحقاق العبادة شرعا (وما أمروا إلا ليعبدوا إلّها واحدا لا إلّه إلا هو سبحانه عما يشركون)[6]

1_ سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

2_ سورة المؤمنون: الآية ٩١.

3_ البراهين الساطعة: صـ ٣٨١

4_ صـ ٤٣.

5_ جـ ٢٧/٣.

6_ سورة التوبة: الآية ٣١.

وقال ابن الهمام في المسايرة: «لما ثبت وحدانيته في الإلهية ثبت استناد كل الحوادث إليه»

وقال ابن أبي شريف في شرحه: (الإلّهية الاتصاف بالصفات التي لأجلها استحق أن يكون معبودا، وهي صفاته التي توحد بها سبحانه، فلا شريك له في شيء منها، وتسمى خواص الإلّهية، ومنها الإيجادمن العدم وتدبيرالعالم والغنى المطلق)[1]

وقال أيضا: «واعلم أن الوحدة تطلق بمعنى انتفاء قبول الإنقسام، وبمعنى انتفاء الشبيه، والباري تعالى واحد بكل من المعنيين أيضا. أما الأول: فلتعاليه عن الوصف بالكمية والتركيب من الأجزاء والحد والمقدار. وأما الثاني: فحاصله انتفاء المشابه له تعالى بوجه من الوجوه»[2].

هذا هو كلام الأشاعرة في التوحيد حيث فسروا التوحيد بإعتقاد الوحدانية لله تعالى في الذات والصفات والأفعال، أي باعتقاد أنه لا يوجد ذات مثل ذاته، ولا يوجد لغيره صفات مثل صفاته، وأنه المتفرد بخلق الأشياء وإيجادها وليس لغيره أي دخل في خلق الأشياء وإيجادها.

وبعبارة أخرى: التوحيد: اعتقاد عدم الشريك في الإلّهية وخواصها. والإلّهية هي الاتصاف بالصفات التي لأجلها استحق المتصف بها أن يكون معبودا.

وهذه الصفات هي المسماة بخواص الإلّهية، وهي خلق العالم، وتدبيره واستحقاق العبادة، والتفرد بحق التشريع، والغنى المطلق عن غيره.

وقد يعبرون عن هذا التوحيد بنفي التشبيه أي: اعتقاد أنه لا مشابه له تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

هذا هو معنى التوحيد، وهو الذي به بعثت الأنبياء، ويقابله الشرك، وهو اعتقاد الشريك لله تعالى في ذاته، أو في صفاته أو في أفعاله.

وبعبارة أخرى هو اعتقاد الشريك في الإلّهية وخواصها أو في شيء من خواصها.

وبعبارة أخرى هو اعتقاد المشابه لله تعالى في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله.

وقد يطلق التوحيد على نفي قبول الانقسام لتعاليه تعالى عن الوصف بالكمية والتركيب من الأجزاء والحد والمقدار.

1_ لمسلمرة: صـ ٥٨.

2_ المسامرة: صـ ٤٣.

أو مايسميه العلماء نفي الكموم المتصلة والمنفصلة في حق الله تعالى

فمعنى الوحدانية يرجع إلى أن الباري جل وعلا لا ثاني له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فتكون أوجه الوحدانية عند أهل السنة ثلاثة وحدانية الذات، ووحدانية الصفات، ووحدانية الأفعال فوحدانية الذات تنفى التركيب في ذاته تعالى وهو الكم المتصل في الذات، وتنفى وجود ذات أخرى تماثل الذات العلية فتنفى التعدد في حقيقتها— وهو الكم المنفصل في الذات وبذلك ندرك أن معنى الكم المتصل هو التركيب في الذات ومعنى الكم المنفصل هو تعدد الذات.

ووحدانية الصفات تنفى التعدد في حقيقة كل واحدة منها متصلا كان – وهو الكم المتصل – أو منفصلا – وهو الكم المنفصل في الصفات فعلم مولانا جل وعز ليس له ثان يماثله لا متصلا أي منسوباً إلى الحق تعالى قائما بالذات العلية ولا منفصلا أي منسوباً إلى الغير قائما بذات أخرى بل هو تعالى يعلم المعلومات التي لا نهاية لها بعلم واحد لا عدد له ولا ثاني له أصلا وقس على هذا سائر صفات مولانا جل وعز .

ووحدانية الأفعال تنفى أن يكون ثم اختراع لكل ما سوى مولانا جل وعز في فعل من الأفعال وهو الكم المنفصل في الأفعال، بل مولانا جل وعز هو المنفرد باختراع جميع الكائنات بلا واسطة وحاصل وحدانية الأفعال نفى نظير له تعالى في ألوهيته ونفى شريك معه في جميع الممكنات فلا مؤثر في جميعها سواه.

خاتمة

وبعد فقد وضح لكل ذي عقل سليم أن تقسيم التوحيد والذي اشتهر بين كثير من الناس ليس صحيحا، وكذلك ما يترتب عليه من أحكام، وأنه لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عن صحابته الكرام رضوان الله عليهم.

وأن توحيد الله واحد لا يتجزأ في مفرداته، فمن أتى بمكفر واحد انتقض إيمانه بالكلية واستحق اسم الكفر لا أن يقال: إنه موحد في الربوبية ومشرك في الألوهية.

وما أرجوه أن يساهم هذا البحث في مناقشة الأساس الفكري لفتنة تكفير المسلمين والتي ابتلي بها بعض مسلمي اليوم، وصارت هذه النزعة التكفيرية سيفا مسلطا على رقاب العباد.

يقول الإمام الغزالي: " التحذير من تكفير الفرق، وتطويل اللسان في أهل الإسلام وإن اختلفت طرقهم، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، صادقين بها، غير مناقضين لها .. لأن الكفر حكم شرعي لا يدرك إلا بمدرك شرعي، من نص أو قياس على منصوص .. ولا يلزم كفر المؤولين ما داموا يلازمون قانون التأويل .. وأصول الإيمان ثلاثة هي الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، وما عداه فروع .. ولا تكفير في الفروع أصلا، إلا في مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر .. فالتكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه .. والخطر في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة (مصّة) من دم مسلم .. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على من يغلب عليهم الجهل .. وأكثر الخائضين في هذا التكفير إنما يحركهم التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين .. والعصمة للدم مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعا، فلا يدفع ذلك إلا بدليل قاطع"[1]

وأقول لهؤلاء الذين يتخذون من هذا التقسيم ذريعة للمسارعة بتكفير المسلمين، وتشبيههم بالمشركين ((أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون))؟!

1- الاقتصاد في الاعتقاد : طبعة القاهرة مكتبة صبح بدون تاريخ صـ ١٤٣، ١٤٤

لا ليسوا سواء المسلمون ليسوا كالكفار .... فلا يستوي من يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ومن يكذبه ويظنه ساحرا أو كاهنا .

ولا يستوي من يؤمن بالله واليوم الآخر والجنة والنار مع من يقول (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا).

لا يستوي من قال (لاإله إلا الله)مع من قال (أجعل الآلهة إلها واحدا) لا يستوي من آمن ومن كفر، من صدق الرسل ومن كذبهم.(١)

وختاما أرجو ممن يقرأ هذا البحث أن يقرأه بإنصاف وروية وطلب للحق ، فالحق أحق أن يتبع ،وما كان من صواب فمن الله ، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان ، والله حسبي وهو نعم الوكيل .

(١) حسن بن فرحان المالكي : داعية وليس نبيا طبعة دار الرازي الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م صـ ٣٧ بتصرف .

فهرس الموضوعات